الفصل التاسع

الجاحظ والفكر السياسى

لاشك فى أن الجاحظ ـ أبا عثمان عمرو بن بحر ـ هو أستاذ العرب الأول ، فقد كان ناثراً مبدعاً فى تاريخ أدبى يكثر فيه النثر الجيد ، وكان يكتب فى أسلوب عربى بديع واضح وجميل، لا سجع فيه ، ولا تضييع لوقت القارئ أو إفسادًا لعقله ، وكان واسع الاطلاع جدًا ، فهو لا يكاد يترك موضوعاً مما يهم الناس إلا كتب فيه كتابة ممتازة ، فهو أستاذ عصره ، وأستاذ الناثرين من بعده ، ونحن عندما نصفه بانه المعلم الأول (للعرب) فنحن لا نقلد ما قيل فى أرسطو أو غيره ، وإنما نحن نقول الحق ؛ فإن الرجل كان أستاذاً ، وكان يكتب بقلم أستاذ ، ويصدر عن فكر أستاذ ، ويشعر بمسئوليته كمفكر مسئول عن تثقيف شعبه ..

وقد عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، أى فى ظل العباسيين (٧٧٥ ـ ٨٦٨) وكان لابد ـ لكى يعيش ـ من أن يؤيدهم سياسيًا ، ومن هنا فإننا

نجده يحمل على بنى أمية حملة عنيفة . بل هو يصفهم بالنابتة ، ويريد بذلك أنهم جماعة نبتت دون أصل ، ووصلت إلى الخلافة دون حق ، وهنا نجد الجاحظ لا يتعرض لمسألة تشريع الخلافة ، وحتى لو خطر بباله الكلام فى هذا الموضوع فما كان ليتكلم ؛ فإن الأمويين إذا كانوا قد وصلوا إلى الخلافة بالغدر واللؤم والخبث فإن السلامة - إذن - فى البعد عن هذا الموضوع .

وقد كتب الجاحظ رسالة عن بنى أمية حمل عليهم فيها بكل عنف ، وهذا لا يدهشنا ، ولكن الذى يدهشنا ويجعلنا نعجب بذكائه وقدرته على الخروج من المأزق مدخله إلى الموضوع ببراعة نادرة - فإن عثمان كان من بنى أمية وهو الذى مكن لبنى أمية من الخلافة ، فإذا كنت حاملاً على بنى أمية ، فكان لابد من أن تشير - ولو مجرد إشارة - إلى تمسك عثمان بالخلافة تمسكاً لا يؤيده فيه شىء أو أحد ، وكان لابد من أن نقول : إن هذا التمسك كان سبب مقتله ، ولو أنه تنازل عن الخلافة لما أصابه ضرر ، ولكنه تمسك وألح فى ذلك ، وكان الذين يناقشونه ناساً من عامة الناس ، أى ناساً بدون ثقافة أو فكر منظم ، إنما هم كانوا - كما رأينا - جنداً غاضبين بسبب قلة المال ، وكانوا يعتقدون أن بنى أمية - خلف عثمان - يسرقون أموال الدولة ويحرمونهم منها ، أو كانوا كذلك لا يرضون عن مذهب عمر فى التفريق بين المسلمين فى الأعطية .

ومن هؤلاء الناس يمكن أن يصدر أى شىء ، وقد قتلوا عثمان ؛ لأنهم جهلة ، ولأنهم لم يعرفوا قدر الصحابة . ومهما كان الأمر فإن عثمان يتحمل بعض المسئولية .

ولكن الجاحظ أذكى من أن يضع على عثمان بعض المسئولية ، فعثمان صحابى جليل وحبيب إلى رسول الله ﷺ ، ولا يرضى مسلم على أن يوجه إليه نقد ، وقد يكون الجاحظ قد رأى أننا ـ مهما أنكرنا من مسئوليته عن مقتله ـ فلابد أيضاً من أن نرى أنه أخطأ ـ ولو خطأ يسيراً ـ عندما رفض أن يستقيل عندما ضاق بالناس وضاقوا به ، وهو ـ لاشك ـ مسئول عن ولاته من بنى أمية وما كانوا يفعلون بالناس . وقد تكون هناك مبالغات ، ولكن لابد أن نقول : إن الكثير من بنى أمية ـ وخاصة المروانيين منهم ـ كانوا بعيدين عن الرسول ﷺ ؛ فقد دخلوا الإسلام فى العام الثامن للهجرة وما بعده ، ثم إن رسول الله ﷺ أبعد أباهم مروان بن محمد عن المدينة ، فنشأ أولاده على كراهة بنى هاشم ، ثم إن معاوية بن أبى سفيان كان لا يحب بنى هاشم ، وليس أدل على ذلك من أنه قتل حُجْر بن عدى لمجرد أن هذا الرجل كان شهماً ، وقد أنكر أن يسب علىّ بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ من على المنابر . لا شك فى أن الجاحظ كان يعرف ذلك كله ، ولكنه كان أذكى من أن يلقى على عثمان ـ رضى الله عنه ـ أى مسئولية ؛ ولهذا فهو يمر على ذلك كله مروراً سريعاً ، ويقف عند على بن أبى طالب وبنيه ، ويطلق

لنفسه العنان فى إظهار العطف عليهم والحزن على ما أصابهم ، فهذا شىء يحمده الناس له . وكلنا ـ إذا جئت إلى العاطفة ـ علويون وحسنيون وحسينيون ، والجاحظ هنا يستعمل كل بلاغته وذكائه ، ويقول مثلاً : « ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ومراتب متباينة، من قبائل (أى بدو) ومن شادّ على عَضُده (أى ناصر لعثمان) ومن خاذل عن نصرته ، والعاجز ناصرٍ بإرادته ومطيع بحسن نيته ، وإنما الشك منا فيه وفى خاذله ، ومن أراد عزله والاستبدال به ، فأما قاتله والمعين على دمه والمريد لذلك منه فَضُلاَّلٌ لا يشك فيهم ، ومُرَّاءٌ لا امتراء فى حكمهم ، على أن هذا لم يعد منهم الفجور ، إما على سوء تأويل ، وإما على تعمد للشقاء . ثم ما زالت الفتن متصلة ، والحروب مترادفة ، كحرب الجمل ، ووقائع صفين ، وكيوم النهروان ، وقبل ذلك يوم الزابوقة (ويوم الزابوقة هو يوم الجمل) وهو الموقع القريب من البصرة الذى وقعت فيه الواقعة وفيه أسر ابن حنيف (هو عثمان بن حنيف بن واهب الأنصارى ، وكان من أكابر العلويين وقد قتله بنو أمية) وقتل حكم بن جبلة (بن حسين العبرى من بنى عبد القيس ، صحابى من عمال عثمان على السند ، وكان ممن عاجوا على عثمان من أجل عبد الله بن عامر وغيره من عماله ، وانضم إلى علىّ فيما بعد) إلى أن قتل أشقاها (يريد عبد الرحمن بن ملجم) على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ فأسعفه الله بالشهادة وأوجب لقاتله النار واللعنة .

إلى ما كان من اعتزال الحسن ـ عليه السلام ـ الحكم والحروب وتخليته الأمور عند انتشار أصحابه وما رأى من الخلل فى عسكره ، وما غرف من اختلافهم على أبيه وكثرة تلونهم عليه . فعندما استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين فى العام الذى سموه عام الجماعة ـ وما كان عام جماعة ـ بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة ، والعام الذى تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً ، والخلافة غصباً قيصرياً ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق .

ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا . وعلى منازل ما رتبنا حتى رد قضية رسول الله ﷺ ردًا مكشوفاً ، وجحد حكمه جحداً ظاهراً فى ولد الفراش وما يجب للعاهر مع اجتماع الأمة على أن سمية ما كانت لأبى سفيان فراشاً (أى زوجة) وأنه إنما كان بها عاهراً ، فخرج بذلك عن حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل حُجر بن عدى (ابن الأدبر الكندى ، قتله معاوية سنة ٥١ هجرية ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك) وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، وبيعة يزيد الخليع (يريد يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان) والاستئثار بالفىء ، واختيار الولاة على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس جحد الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة .

وهذا كله كلام جميل جدًا من ذلك الرجل الأديب البليغ ،

ولكنه لا يقول الحق دائماً ؛ لأن الحق هو أن مسئولية الكثير من هذه الأعمال تقع على كتف عثمان نفسه ، فإن بنى أمية فعلوا أمثال ذلك كله فى أيامه . فتصور أن رجلاً مثل أبى بكر بن العربى يقول فى كتابه «العواصم من القواصم » : إننا لا ينبغى قط أن نقول كلمة فى حق معاوية ؛ لأنه كان من الصحابة ، ولا يجوز لمسلم أن ينتقد صحابياً . ولنا فى ذلك رأى آخر . فنحن نرى أن نحترم كل صحابى بقدر ما أفاد أو قبس من نور رسول الله ﷺ ، فبعض الصحابة مثل أبى بكر وعمر كان خلقهم كله اقتباساً من الرسول ﷺ ؛ ولهذا فإننا نحترم كل تصرف لهما وكل كلمة قالاها ، ولكن ما رأيك فى عبد الرحمن بن عوف الذى قصد بالفعل أن يخرج علياً من الخلافة عندما سأله : هل تتبع خط الرسول وأبى بكر وعمر ؟ فقال على : إننى أتبع خط الرسول ﷺ ، ولكن أبا بكر وعمر صحابيان مثلى ، والله ـ سبحانه ـ أرسل نبياً واحداً هو محمد ﷺ ، ولم يبعث ثلاثة أنبياء؛ فأنا أتبع الرسول وسنته . وأنظر فيما فعل أبو بكر وعمر ، فما رأيت من الصواب فى عملهما فعلته ، وإلا فإننى أجتهد برأيى ، وعمر نفسه لم يعجبه الكثير من آراء أبى بكر فتركها واستشار الناس وأخذ بالشورى .

وأنا أقول ذلك ؛ لأن تحديد الفكر وتحريمه على الناس لا يأتى بخير أبداً . وهذا هو السبب فى أن الفكر السياسى عندنا أصيب بشلل ؛ فقد كان الناس ـ ولا يزالون ـ يقدسون جميع

الصحابة حتى إنهم لم ينتقدوا منهم أحداً ، ولم يحاول أحد أن يضع تشريعاً للخلافة كما قلنا . والجاحظ ـ كما سنرى ـ لا يوافق على ذلك . ونحن ـ فيما يتعلق بالماضى ـ نميل إلى الكذب ؛ ظنًا منا أن ذلك يزيد من مجد العرب . فقد قرأت كاتباً يقول فى كتاب : « إن البيرونى قال : إن الأرض تدور حول الشمس وتدور حول نفسها . وهذا كلام لم يقله البيرونى ، وإنما قاله مفكر إيطالى هو كوبير نقوس . والبيرونى قال كلاماً آخر لا يقل عبقرية عن كلام هذا الإيطالى . فلماذا نصغر من قدره ونسرق من الإيطالى ونضيف إليه ؟ وإن ماضينا ـ كما هو ـ ملىء بالمفاخر ، فلماذا نصغر أنفسنا ونكذب ؟

وأنا أكتب هذه الفصول لكى أقول ذلك للناس ، فليس هناك أحسن ولا أحلى من الصدق . وإذا كنا لم نأخذ افكارالتشريع السياسى إلا من أهل الغرب ولم نعرف الدستور إلا عن طريقهم فكيف يسالنى صديق قائلاً : ألم يأخذ أهل الغرب الدستور عنا ؟ وأنا أقول له : يا سيدى ، إنهم لم يأخذوا الدستور عنا ، بل نحن الذين أخذناه عنهم ، وهم أنفسهم قضوا فوق المائتى عام يفكرون ويعملون حتى انتهوا إلى ضرورة وضع دستور ، أى قانون أساسى يحدد مدة الحاكم الأعلى ، ويضع حدود سلطاته وحقوق المواطنين ، ويحدد مصارف المال العام . ولفظ الدستور نفسه ليس لفظاً عربيّاً بل فارسى ، ومعناه فى الأصل : قالب الطوب الذى يصنع بمقاييس محددة ، فاخذه المشرعون العرب

فى القرن الماضى واستعملوه بمعنى القاعدة التى يعمل القانون الأساسى بمقتضاها . والدفتر الذى تكتب فيه ، وفى الاصطلاح المعاصر مجموعة القواعد الأساسية التى تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها ومدى سلطتها إزاء الأفراد (المعجم الوسيط ١ / ٢٩٢) والجمع : دساتير . وإذا كنا قد أخذنا منهم الدستور فقد أخذوا هم منا أشياء كثيرة جداً ، وإذن فلا معنى للكذب ، ونحن ـ والحمد لله ـ بخير ، وفضلنا عظيم .

ثم يقول الجاحظ فى أسلوبه البليغ المنعدم النظير : وفى باب ما يستحق من الإكفار جحد الكتاب ورد السنة إذا كانت السنة فى شهرة الكتاب وظهوره ، إلا أن أحدهما (وهو القرآن طبعاً) أعظم وعقاب الآخرة عليه أشد . فهذه أول كفرة كانت من الأمة . ثم لم تكن إلا فيمن يدعى إمامتها والخلافة عليها (يريد أن هذا أول كفر وقع من الأمة ، ولكنه وقع من معاوية الذى ادعى الإمامة والخلافة) على أن كثيراً من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره (أى بتركهم تكفير معاوية) وقد رأيت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت : لا تسبوه ؛ فإن له صحبة، وسب معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنة، فزعمت أنه من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة .

وهذا كلام عظيم جدّا من الجاحظ ، فهو يقول أولاً : إن معاوية جحد السنة ، ومن جحد السنة فلابد من تكفيره . وهذا رأى جرىء جدّا منه فى أيامه . ثم إنه يسمى بنى أمية

وخلفاءهم والمتعصبين لهم بالنابتة ، وهى كلمة تجىء هنا فى معنى الطارئة ، أى الذين طرأوا على المجتمع الإسلامى ، وفرضوا أنفسهم عليه دون حق . وإذا كان الجاحظ لم ينتقد تصرف عثمان بن عفان فى بعض تصرفاته بسبب خوفه من أهل عصره فإنه قال كلاماً عظيماً آخر ، وهو هنا أجرأ وأحكم من أبى بكر بن العربى الذى دعا فى كتاب « العواصم من القواصم » إلى تكميم الأفواه وتجميد العقول تماماً . والجاحظ هنا يؤيد ما قلناه فيه من أنه المعلم الأول ، وهو بالفعل معلم العرب الأول فكراً وأسلوباً وأصالة وعقلاً . واقرأ الفقرة التالية من كلامه عن بنى أمية لتتأكد من ذلك : « ثم الذى كان من يزيد ابنه ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين ـ عليه السلام ـ فى أكثر أهل بيته مصابيح السلام وأوتاد الإسلام بعد الذى أعطى من نفسه من تفريق أتباعه والرجوع إلى داره وحرمه أو الذهاب فى الأرض حتى لا يحس به ، أو المقام حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله والنزول على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده أو أسلمها إلى عدوه وخيِّر فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه ، أفحسبوا قتله ليس بكفر !! وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجة ؟! كيف تقولون فى رمى الكعبة وهدم البيت الحرام قبلة المسلمين؟ فإن قلتم : ليس ذلك أرادوا ، بل إنما أرادوا المتحرز به والمتحصن بحيطانه أفما كان من حق البيت وحريمه أن

يحصروه فيه إلى أن يلقى بيده ؟ وأى شىء بقى من رجل أخذت عليه الأرض إلا موقع قدمه ؟! » .

وأنا أقدر أنك لم تقرأ أبلغ من هذا فى الكتابة عن بنى أمية وما فعلوه بالحسين وآل النبى ﷺ والكعبة المشرفة والمدينة المنورة ، ولكن الجاحظ لا يقف عند هذا الحد فى تكفير بنى أمية، بل هو يرى أن خلفاءهم أشد كفراً منهم . واقرأ الفقرة التالية لترى بلاغة ذلك المعلم الأول ، بل لكى ترى كيف تكون البلاغة العربية على الإطلاق . قال فى نفس الرسالة : « على أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحقه برد السنة وهدم الكعبة . وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجويز (أى بتجويز أن يكون الله سبحانه شبيهاً بمخلوقاته والعياذ بالله) والنابتة فى هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه ، ولو ثبت أيضاً على يزيد أنه تمثل بقول ابن الزبعرى (هو عبد الله ابن الزبعرى بن قيس بن عدى ، وكان من أعداء الإسلام يهجو المسلمين والإسلام قبل إسلامه) :

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
لاستطالوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا : يا يزيد لا تسل
قد قتلنا الغر من سادتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

كان تجويز النابتى لربه وتشبيهه بخلقه أعظم من ذلك وأقطع . على أنهم مجمعون على أنه ملعون من قتل مؤمناً متعمداً أو متاولاً . فإذا كان القاتل سلطاناً جائراً أو أميراً عاصياً لم يستحلوا سبه ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقراء ، وظلم الضعفاء ، وعطل الحدود والثغور ، وأشرب الخمور ، وأظهر الفجور .. » .

ثم يقول بعد فقرة من ذلك ، وهذا أبلغ ما تقرأ فى العربية :

« فاحسب تحويل القبلة كان غلطاً وهدم البيت كان تاويلاً ، وأحسب ما رووا من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء فى أهله أرفع عنده من رسوله إليهم باطلاً ومصنوعاً مولداً ، وأحسب وشم أيدى المسلمين (ووشم الشىء : كواه فأثر فيه بعلامة ، وكذلك كان بنو أمة يفعلون مع المسلمين ؛ ليتاكدوا من أداء الضريبة حتى أبطل ذلك عمر بن عبد العزيز) ونقش أيدى المسلمات وردهن بعد الهجرة إلى قراهن (وهذا محرم فى الإسلام ؛ لأن الهجرة كانت مرتبة من مراتب التحضر فى الإسلام ، وكان رسول الله ﷺ يدعو إلى الهجرة ، أى الاستقرار وترك البداوة) وقتل الفقهاء وأئمة الهدى والنصب لعترة النبى ﷺ لا يكون كفراً ، فكيف تقول فى جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة ؟ ولا يصلون أولاهن حتى تصير الشمس على أعالى الجدران كالملا المعصفر، فإن نطق مسلم خبط بالسيف وشك

بالرماح ، وإن قال قائل : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم ، ثم لم يرض إلا بنتر دماغه على صدره ويصلب حيث تراه عياله » .

ومن غريب الأمر أن الجاحظ ـ رغم هذا الذكاء وبعد النظر ـ لم يكتب حرفاً فى ضرورة تشريع الخلافة ، وعذره هنا معروف وإن لم يكن مقبولاً ، فقد كان الرجل يكتب فى العصر العباسى ، وكان هو نفسه عباسيّاً ، والعباسيون قد غصبوا الخلافة كما فعل بنو أمية . فكيف يستطيع الرجل أن يقول كلمة فى هذا المعنى ، ولو أنه قالها لخبط بالسيف وشك بالرماح ، ولم يكن بنو العباس أحسن من بنى أمية لا فى السياسة العامة ولا فى معاملة العلويين ، وتلك هى المصيبة الكبرى ، فنحن ـ مع الأسف الشديد ـ عشنا دائماً فى ظل الاستبداد السياسى ، ولم يؤذن لنا قط أن نقول كلمة حق ، وكان أهل الغرب فى مثل حالنا حتى قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، فالحق أن هذه الثورة أطلقت عقال الألسنة ، وفتحت الأبواب على مصاريعها للحرية . وقد قضى الفرنسيون أكثر من قرن حتى وصلوا إلى الحرية السياسية الحقيقية عندما قامت الجمهورية الثالثة بعد حرب ١٨٧١ مع ألمانيا ، والجمهورية الثالثة هى التى قررت حق الشعوب الكامل فى وضع النظام السياسى الذى يرون أنه يحقق للوطن أكبر جانب من الخير ، ومن هنا فإننى أرجو القارئ ألا يستهين بالثورة الفرنسية ، حقًا إن الإسلام قرر قواعد

الحرية السياسية فى أيام الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولكن المسلمين ابتداء من العصر الأموى حرموا الناس من حقوقهم السياسية ، وكذلك العباسيون وكل دول الإسلام إلى العصر الحديث ، والعبرة فى التاريخ بالحقائق الواقعة إلى جانب المبادئ المعلنة .

ويكفى هذا عن بنى أمية وننتقل إلى بنى العباس .

قال الطبرى برواية سنده فى الكلام على أبى جعفر المنصور:

« وذكر العباس بن الفضل بن سلام الأبرشى قال : كنت وأنا وصيف (يريد خادما صغيراً) وغلام آخر نخدم المنصور داخلاً فى منزله ، وكانت له حجرة فيها بيت وفسطاط وفراش ولحاف يخلو فيه . وكان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس ، وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان ، فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه ، فيخرج فيكون منه ما يكون ، فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك ، فنستقبله فى ممشاه فربما عاتبناه . وقال لى يوماً : « يا بنى إذا رأيتنى لبست ثيابى أو رجعت من مجلسى فلا يدنون منى أحد منكم ؛ مخافة أن أعره (أصيبه) بشىء » (الطبرى ٨/ ٦١ ـ ٦٢) ومعنى ذلك أن هذا الرجل ـ أبو جعفر المنصور ـ كان إذا خرج

ليمارس شئون الحكم تحول إلى إنسان دموى غاضب لا يؤمن على شيء إذا غضب ، أما فيما عدا ذلك فقد كان فى الحقيقة رجلاً لطيفاً حسن الخلق ، وهذه حقيقة ينبغى أن نعرفها حتى يصدق حكمنا على رجال السياسة والسلطان فى تاريخنا ؛ فهؤلاء الناس - نتيجة للسلطان المطلق الذى كان فى أيديهم - كان لكل منهم خلقان : خلقه العادى ، وخلق الحاكم ، فأما خلقه العادى فكما رأينا خادم المنصوريصفه فيقول : إنه كان لطيفاً محبباً حتى أنه كان من أكثر الناس احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان ، فإذا خرج للحكم لم يؤمن حتى على خدمه ، وهو نفسه كان يأمر غلمانه بأنه إذا لبس ثيابه وخرج للعمل فلا يقترب منه أحد منهم فربما أصابه بشيء ، والحقيقة هى أن الحكم المطلق هو الذى كان يغير أخلاق أولئك الناس ، فإن الواحد منهم كان مستعدًا لأن يأمر بقتل عشرة آلاف إنسان إذا غضب أو إذا خاف على ملكه ، فإذا لم يكن هناك خوف على الملك فإن الواحد منهم يكون لطيفاً طيب الخلق كثير الاحتمال ، والمنصور هذا قتل المئات بل الآلاف ، وقتل أبا مسلم الخراسانى بصورة بشعة ؛ لأنه خاف منه على سلطانه ، أما فيما عدا ذلك فقد كان صبوراً مأموناً ، ونحن نقرأ مثلاً أن أحمد بن طولون والى مصر قتل الآلاف ، وكان فى سجنه المطبق - وهو قبو تحت الأرض - أربعون ألف محبوس .

ومع ذلك فقد كان رجلاً تقيّاً مؤمناً ، يقيم الصلوات فى أوقاتها ، ويتصدق بسخاء ، وقد أنفق الآلاف فى إنشاء مسجد ابن طولون المشهور . وفى وصف أبى العباس السفاح أخى المنصور يقول الفخرى فى كتاب الآداب السلطانية (ص١١٢) : « إنه كان كريماً حليماً ، وقوراً عاقلاً ، كاملاً ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق » ويقول عنه السيوطى فى تاريخ الخلفاء (ص ١٧١) : « وكان السفاح أسخى الناس ، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها » .

وهذا الرجل هو الذى قال عن نفسه فى أول خطبة له خطبها على منبر الكوفة : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المبيد » وقد كان بالفعل هذا وذاك .

★★★